المكتبتان الملكيتان بجامع مدينة تلمسان

(دراسة توثيقية)

د./ الرزقي شرقي

أستاذ محاضر

جامعة تلمسان

La présente communication, porte sur l'invitation des chercheurs spécialisés en histoire contemporaine de l'Algérie, durant la période coloniale (1830 – 1962) à l'exploitation de l'approche archéologique, basée sur l'interprétation des documents matériels, tels que les vestiges de surexploitions de la richesse naturelle du pays, les tracés des réseaux routiers et chemins de fer, la viticulture, la planification urbaine et rurale, les restes des batailles sur terrain, l'armement des combattants et les troupes françaises, …etc. Afin de pouvoir surmonter le seuil de l'histoire évènementiel du 19ème siècle, instaurée depuis plus de 50 ans par deux écoles antagonistes dans la forme: l'école nationaliste, basée sur les mémoires et témoignages des acteurs à l'évènement historique d'une manière ou une autre; et l'école coloniale basée sur les collections sélectives des archives de l'administration française en Algérie, transférées durant la période (1961 – 1962) vers la France. Ces deux écoles instaurent en réalité une histoire paradigme, la première glorifie les individus, et la deuxième défend la positivité du colonialisme (concrétisée par la célèbre loi du mois de février 2005), cependant, les deux écoles ont des points communs tels que la sélection de l'évènement historique qui mérite la datation, la guerre des chiffres, …etc.

استأثرت المطالعة العامة، ومطالعة الكتب الدّينية منها بشكل خاص باهتمام مختلف شرائح المجتمع الإسلامي منذ فجر الإسلام حتّى اليوم على غرار مكتبات المطالعة العمومية، التّي لم تحظ بذات الاهتمام[1]؛ ففي الوقت الذي عادت فيه ظاهرة وقْفَ الكتب، وحَبْسها على طلبة العلم والعلماء، واسعة الانتشار بين مختلف أفراد المجتمع، حيث لا فرق بين حاكم، وتاجر ثري، وإنسان بسيط في هذا المجال، كما هو مجسد بوضوح في بعض لوحات أوقاف معالم مدينة تلمسان (اللّوحة: 01)[2]؛ يُلاحظ عدم الاكتراث بالمكتبات، الوعاء المعماري الذي يحفظ الكتاب من التّلف والضّياع من جهة، وتوفير أسباب الرّاحة والمتعة لقارئه من جهة ثانية.

وكلّ ما كان في الأمر، ولاسيما خلال القرون الوسطى، هو وضع تلك الكتب بالمساجد، والمدارس، والزّوايا، والكتاتيب من غير جرد، ولا فهرسة؛ ونادرا ما كانت تُخصّ بملحقة معمارية بجوار تلك

---

[1] *BILICI (F), "Les bibliothèques vakifs à Istanbul au 16eme siècle prémices de grandes bibliothèques publiques», In: **Revue de l'Occident musulman et de la méditerranée**, N° 87 – 88, p 40.*

[2] شرقي (الرزقي)، "الكتابات الوقفية بالمعالم الدّينية في مدينة تلمسان (مصدر جديد لتّوثيق المسح العقاري بالمدينة وضواحيها)"، في مجلّة: "**الثّقافة**"، الصّادرة عن وزارة الثّقافة بالجزائر، العدد: 16، أكتوبر 2007، ص ص 84 – 106.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

المؤسسات الدّينية، مثل ما وقع مع مكتبة جامع القرويين بمدينة فاس المغربية الذائعة الصّيت[3]، ومع المكتبتين الملكيتين الزّيانيتين، الملحقتين بجامع مدينة تلمسان*، موضوع هذه الدّراسة، ونعتها عندئذ باسم "خزانة الكتب"**، تميزا لها عن خزائن بقية الأغراض، وتأكيدا لدورها الوظيفي، المُقتصر على حفظ وإيداع الكتب، وليس مكان المطالعة العمومية، حيث لا يسمح فضاؤها الضّيق بذلك***.

1- مكتبة السّلطان أبي حمّو موسى الثّاني

درست هذه المكتبة في خضم أشغال الصّيانة والتّرميم، التّي ألحقتها مصلحة المعالم التّاريخية للاحتلال الفرنسي بالجامع الكبير في مدينة تلمسان منتصف القرن التّاسعة عشر (19) ميلادي[4]؛ ولم يعد لها أثر اليوم غير شاهد أثري واحد، إضافة إلى ثلاث شهادات مدوّنة، أقدمها لأسير ألماني في الجزائر، تمكن من مشاهدتها عيانا منتصف القرن السّابعة عشر ميلادي، تليها الشّهادة الثّانية، التّي كانت في منتصف القرن التّاسعة عشر (19) ميلادي، وهي الشّهادة التّي أدلى بها القسّ، وعالم اللّغات الفرنسي "بارجاس" (*BARGES*)، الذي زار مدينة تلمسان عام (1846)م، قبل أن ينشر مذكراته بشأنها تحت عنوان طويل في عام (1859)م*، وآخرها شهادة "بروسلار" الذي أجرى سبْرا أثريا بداخل المكتبة ذاتها، نهاية عقد خمسينات، أو مستهلّ عقد ستينات القرن التّاسعة عشر (19) دائما[5].

أمّا الشّاهد الأثري، فيتمثل في كتابة تأسيسية للمكتبة المذكورة، مدوّنة بخط أندلسي متقن على امتداد سطر طويل، منقوش بشكل بارز في لوح من خشب الأرز، أبعاده (2.50 × 0.35)م، هذا نصّه:

---

[3] الواقع أنّ لهذا الجامع مكتبتين، إحداهما بداخله ، تُجاور حنية المحراب من جهة اليسار بالنّسبة للمستقبل نحو القبلة، يقدمها باب خشبي مقوس يحمل كتابة تأسيسية خاصّة بها؛ إضافة إلى المكتبة المذكورة في المتن المستقلّة بذاتها في بناية خاصّة حذاء هذا الجامع العريق.

* الواقع أن مدينة تلمسان قد عرفت ثلاث مكتبات عمومية، والمعلومات الواردة بشأنها نادرة جدّا، ولا تضع حدّا يُميز بين بعضها بعضا لدرجة أن المطالع يعتقد بوجود مكتبة واحدة لا غير؛ ومهما كان من أمر فإنّ هذه الدّراسة ستلقي الضّوء على اثنتين منها، أمّا الثّالثة فقد كانت من إنشاء المحتلّ الفرنسي خلال النّصف الأوّل من القرن التّاسعة عشر ميلادي، وكان بها ما لا يقلّ عن (2200) مجلّدا من زبدة كتب اللّغة الفرنسية، التّي قد لا تتوفر في مكتبات عمومية مماثلة بفرنسا ذاتها على حدّ شهادة أحد روّادها السّائحين ربيع عام (1875)م، وقد كان مقرّها مع المتحف بجوار دار البلدية (اللّوحة: 02)، وهي بذلك تخرج على نطاق هذه الدّراسة. أكثر تفاصيل حول هذه المكتبة ينظر: *DE LORRAL (M.E), «Tlemcen», Série: **Tour du monde (Nouveau journal des voyages)**, N° 30, 02^{emè} semestre 1875, publié sous la direction de M. Edouaerd CHARTON, Librairie Hachette & Cie, Paris, 1875, p 316, colonne 1.*

** تُعرف المكتبة العمومية في اللّهجة المغربية باسم "خزانة الكتب"، حتّى اليوم، حيث ظلّت المكتبة الوطنية لديهم تُنعت باسم "الخزانة العامة للكتب" إلى وقت قريب منّا.

*** كان افتتاح أول مكتبة عمومية بالمفهوم المتداول اليوم لدى الخلافة العثمانية عام (1678)م، ألا وهي مكتبة "كوب رولو" (*KÖPRÜLÜ*) بمدينة إسطنبول العريقة، أكثر تفاصيل ينظر: *BILICI, Op.cit, p 41*

[4] - *MARçAIS (W & G), **Les monuments arabes de Tlemcen**, éditions ancienne librairie Thorin et fils, Albert Fontemoing éditeur, Paris, 1903, p180, marge 2.*

- *GOLVIN (L), **Essai sur l'architecture religieuse musulmane ; IV. (L'art hispano-musulman)**, éditions KLINCKSEICK, Paris, 1979, p 143, marge 31.*

* بيانات المصدر كاملة هي: *BARGES (J.J.L), **Tlemcen ancienne capitale du royaume de ce nom, sa topographie, son histoire, description de ses principaux monuments, anecdotes, légendes divers; souvenirs d'un voyage**, Editeurs BENJAMAIN (D) & CHALLAMEL (A), Paris, 1859.*

[5] *BROSSELARD (C), "Mémoire épigraphique et historique sur les tombeaux des émirs Beni-Zeiyan et de Boabdil, dernier roi de Grenade découverts à Tlemcen", In: **Journal Asiatique**, 07eme série, Tome 7, année 1876, pp 54 – 55.*

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"أمر بعمل هذه الخزانة المباركة مولانا السّلطان أبو (كذا) حمو ابن الأمرا (كذا) الرّاشدين أيد الله أمره وأعزّ نصره ونفعه كما وصل ونوى وجعله من أهل التّقوى وكان الفراغ من عملها في يوم الخميس ثالث عشر لذي قعدة عام ستين وسبع ماية"[6].

وقد كان ذلك اللّوح مثبتا إلى جدار القبلة من بيت صلاة الجامع الكبير، يمين المحراب*، حيث تغطيه طبقة سميكة من الجصّ المثلم، الشّيء الذي أثار فضول "بروسلار"، ودفع به إلى نبش تلك الطّبقة الجيرية المتشققة، قصد معرفة ما كانت تحجبه عن الأنظار، فما كان من دافع ذلك الفضول، غير إخراج هذه الوثيقة الأثرية الهامة إلى الوجود مرّة ثانية بعدما طُمِست بشكل إرادي في وقت سابق*، يصعب تحديده، كما يصعب التّكهن بالدّوافع الحقيقية، الكامنة وراء ذلك[7].

فهذه النّاقشة الأثرية إذا، تمدّنا بنصف الحقيقة، حيث تؤكّد من جهة الوجود الفعلي للمكتبة، ومن جهة ثانية اسم السّلطان الذي أمر بإنشائها، وتاريخ ذلك؛ إذ يتعلّق الأمر بكبير سلاطين الدّولة الزّيانية في عصرها الثّاني والأخير على الإطلاق، ألا وهو السّلطان أبي حمو موسى الثّاني (760 – 791هـ /

---

[6] ينظر بخصوص هذه الكتابة المراجع الآتية:

- بورويبة (رشيد)، **الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية**، ترجمة إبراهيم شبّوح، نشر الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 1979، ص ص 69 عمود 1 – 70 عمود 2.

- *BARGES (J.J.L), Op.cit, p 431.*

- *BOURUIBA (R), **L'art religieux musulman en Algérie**, éditions société nationale d'édition et de défusion, Alger, 2eme édition, 1981, p 105, colonne 2.*

- *BROSSELARD (C), "Les inscriptions arabes de Tlemcen (I Grande Mosquée)", In: **Revue Africaine**, N° 3, année 1859, pp 90 – 91.*

* يُشير "بارجاس" في كتابه الآنف الذكر إلى أنّ هذه الكتابة قد حُوِّلت من موضع اكتشافها إلى المتحف، حيث كانت محفوظة هناك ساعة تأليفه لكتابه (*BARGES (J.J.L), Op.cit, p 432.*)؛ فيما يقول الأخوان "مارسي" مستهل القرن العشرين (1903) بأنّ الكتابة ما تزال في موضع اكتشافها الأصلي (*MARÇAIS (W & G), Op.cit, p 143, marge 2.*)؛ ولعلّ القول الرّاجح، أنّ الكتابة قد اقتلعت فعلا من مكانها ساعة اكتشافها بغرض التنظيف والدّراسة، حيث كان مكان حفظها المؤقت متحف المدينة، المنشأ حديثا بوصفه المكان الأنسب لحفظ التّراث الأثري المكتشف آنذاك (اللّوحة: 02)، قبل أن تُرجع في وقت لاحق إلى الجامع، ويُعاد تثبيتها مرّة ثانية، الشّيء الذي دفع بالأخوين "مارسي" القول بأنّ الكتابة محفوظة في موضع اكتشافها من الجامع على عهدهما؛ ومهما كان من أمر، فاللّوحة موجودة اليوم بالجامع على مستوى البلاطة الثّانية من النّاحية الغربية للجامع، مثبتة بإحكام على ارتفاع يناهز الأربعة أمتار من أرضية الجامع بجدار القبلة دائما، حيث يُلاحظ انحيازها إلى جهة البلاطة الثّلاثة، وليس في منتصف البلاطة الثّانية. قوامها قطعتان متطابقتان، تضمنت السّفلى منهما نصّ الكتابة التّأسيسية، فيما اكتفت القطعة الثّانية باستيعاب أطراف الحروف الممدودة، كحرف "الألف"، وحرف "اللاّم"، وكذا الزّخرفة النّباتية المحوّرة، التّي تتوّج تلك الكتابة؛ تعلوها نافذة صغيرة تُطلّ على الفناء الجانبي للجامع من جهة القبلة (اللّوحة: 03).

* تجدر الإشارة في هذا المقام إلى ظاهرة طمس الكتابات التّسجيلية بالمعالم التّاريخية في مدينة تلمسان، فثمة كتابات تسجيلية عديدة، عثر عليها هذا الباحث مطموسة، وليس هذه الكتابة فحسب، كما نبّه على ذلك في مواضعه ضمن سلسلة مقالاته المنشورة بالمجلة الإفريقية بين سنتي (1858 – 1862)م، والمعتدة في سبع عشرة (17) مذكرة.

[7] *BROSSELARD (C), "Les inscriptions arabes de Tlemcen (I Grande Mosquée)", Op.cit, p 90 ; BARGES (J.J.L), Op.cit, p 432.*

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

1359 – 1383م)، باعث مجد الدّولة الزّيانة في المغرب الأوسط من الرّماد، عقب تمكنه من تصفية احتلال المرنيين بمملكته في مستهل شهر ربيع الأول عام (760)هـ، الموافق لشهر فيفري (1359)م[8].

إذ يعتبر تشييد هذه المكتبة من أولى مشاريعه الحضارية بمدينة تلمسان فيما يبدو، وعلى وجه الدّقة والتّحديد بعد مضي سبعة أشهر فقط من تاريخ إجلائه للمرنيين على تلمسان بشكل كامل، كما هو مؤكّد في التاريخ المدوّن على النّاقشة (أوائل شهر ربيع الأوّل من عام 760هـ، الموافق لشهر أكتوبر 1359)[9].

وهو المشروع الحضاري، الذي كان مُمهدا لصرح حضاري آخر أكبر بكثير، تمّ بناؤه في الفترة الممتدة ما بين سنتي (763 – 765هـ / 1362 – 1364)م على إثر وفاة والده، العاهل أبي يعقوب يوسف شهر شعبان من عام (763)هـ، والمتمثل في تشييد مركب معماري فخم، يتضمن روضة خاصة لدفن ملوك وأمراء أسرته الحاكمة (ضريح الوليّ الصّالح إبراهيم المصمودي، والمسجد المجاور الذي يُعرف باسمه إلى يومنا هذا[10]، ومدرسة للتعليم نُسبت تسميتها لوالده منذ ذلك الحين، حيث عادت تُعرف باسم "المدرسة اليعقوبية"، التّي لا تقلّ رونقا وجمالا عن المدرسة التّاشفينية على حدّ الوصف الذي خصّها به صاحب كتاب زهر البستان[**]، حيث كان من جملة ما قاله فيها نقلا عن حاجيات عبد الحميد ما نصّه بالحرف الواحد: "فأُقيمت مدرسة مليحة البنيان، واسعة الفناء، بُنيت بضروب من الصّناعات، ووضعت في أبدع الموضوعات، سمكها بالأصبغة مرقوم، وبساط أرضها بالزّليج مرسوم، ... صُنع فيها صهريجا مستطيلا، وعلى طَرَفيْه من الرّخام خصّتان[***] يطردان مسيلا، فيا لها من بنية، ما أبهجها"[11]!!.

هذا فيما يتعلّق بالشّطر الأوّل من حقيقة هذه المكتبة العريقة، أمّا فيما يتعلّق بالشّطر الآخر، فهو مكان وجودها بدقة؟، الذي ضبطته ثلاث شهادات مدوّنة كما سبقت الإشارة، أقدمها تلك التّي أدلى بها الضّابط الألماني "سيدان" (*SIDEN*)، الذي قضى مدة نحو خمسة عشر عام من الأسْر في الجزائر، حيث أشار في معرض مذكراته الخاصّة، الموسومة بـ: "مذكرات أسير"، والمنشورة لأوّل مرّة عام (1659)م إلى وجود مكتبة عمومية في وسط مدينة تلمسان، وأنّ أحد الأمراء –قد يعني أبي حمّو موسى

---

[8] أكثر تفاصيل حول مواهب هذا السّلطان الأدبية، ومناقبه الفكرية والحضارية، يُنظر على وجه الخصوص: حاجيات (عبد الحميد)، **أبو حمّو موسى الزّياني حياته وآثاره**، نشر الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، الجزائر، الطّبعة الثّانية، 1982.

[9] بورويبة، مرجع سابق، ص ص 69، عمود 2 – 70 عمود 01؛ *BROSSELARD (C), "Les inscriptions arabes de Tlemcen (I Grande Mosquée)", Op.cit, p 91; BARGES (J.J.L), Op.cit, p 432.*

[10] حول ترجمة هذا الولي الصّالح ينظر: ابن مريم (أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الشّريف المديوني التّلمساني)، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (بدون ذكر تاريخ الطّبع)، ص ص 64 – 66.

[**] مخطوط أدبي وتاريخي ضخم، تمّ نشره في الآونة الأخيرة على يدي باغلي سيد أحمد (في جزئين) ضمن تظاهرة "تلمسان عاصمة الثّقافة الإسلامية (2011)"، تطرّق فيه صاحبه المجهول الهوية بتفاصيل لا توجد في غيره من مصادر المغرب الإسلامي لأحداث السّنوات الخمس (05) الأولى من حكم السّلطان أبي حمّو موسى الثّاني.

[***] نافورتان.

[11] حاجيات، مرجع سابق، ص 182.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الثّاني ذاته؟- أمر بجمع لها الكتب من مختلف أنحاء مملكته، ووضعها في متناول الطّلبة، وخدمة العلم والعلماء[12].

وإذ لم يحددّ هذا الأسير مَوْضع المكتبة بدقّة من وسط المدينة، ولا طبيعتها إن كانت مستقلّة بذاتها، أو ملحقة بمنشأة معمارية أكبر منها، كما توقّع عن صواب أبو القاسم سعد الله، ساعة استنطاقه لهذه المعلومة العامّة في الفترة المعاصرة[13]، فإنّ عالم اللّغات الفرنسي "بارجاس"، والباحث المستشرق "بروسلار"، قد وسعهما الأمر لقطع الشّك باليقين، منتصف القرن التّاسعة عشر (19) ميلادي على كلّ حال.

فقد أورد القس الفرنسي تفاصيل زيارته للجامع الكبير برفقة مفتي تلمسان على ذلك العهد من غير أن يذكر اسمه، والذي كان مُرشدا له في تلك الفسحة، حيث اقتاده في جملة ما زاراه من مرافق بالجامع المذكور إلى غرفة مرتفعة ومظلمة، كانت تقع بين محراب الجامع، وضريح ابن مرزوق التّلمساني*، قد فُتح بابها الصّغير، المقوس على مستوى جدار القبلة[14]، والذي كان يقدمه بدوره سلّم صغير يوصل إلى هذه الأخيرة، ثمّ قال له فيما معناه: "هنا تنام رفات السّلطان يغمران، مؤسس الدّولة الزّيانية بتلمسان"؛ إلاّ أنّ "بارجاس" سرعان ما تعجبّ للأمر، وساوره شكّ بصحّة هذه الرّواية الشّعبية، المتغلغلة في أعماق الذاكرة الشّعبية المحلّية آنذاك في غياب الرّخام الذي يليق بمقام الملوك، وآثار القبر المزعوم، فأردفه المفتي مُطَمْئننا بأنّ موقع هذا القبر على عمق بضعة أقدام من سطح أرضية تلك الغرفة، التّي لم تكن مبلطة بالمرّة[15].

أمّا "بروسلار" فلم يكتف باكتشاف كتابة تأسيس المكتبة، كمّا هو مفصّل في موضعه أعلاه فوق مدخل هذه الغرفة بالذات فحسب[16]، ممّا لا يدع شكا في وظيفة تلك الغرفة، التّي بدت خالية، موحشة، مجهولة الوظيفة وقت زيارة "بارجاس" على خلاف ما كانت تشعّ به من ذخائر التّراث المعرفي المخطوط أيام عزّها الأوّل في العهد الزّياني، واستمراره ساطعا إلى وقت مرور الأسير الألماني بها منتصف القرن السّابعة عشر ميلادي[17]؛ وإنّما تعدّاه إلى إجراء سبر أثري بداخل تلك الغرفة بدافع تأكيد أو تفنيد الرّواية الشّعبية، القائلة بأنّها غرفة دفن السّلطان يغمراسن بن زيان، قبل أن تُحوّل إلى مكتبة على عهد السّلطان أبي حمّو موسي الثّاني، كما ذكر المفتي الذي رافق "بارجاس" من قبل لهذا الباحث الشّغوف بالكتابات

---

[12] سعد الله (أبو القاسم)، **تاريخ الجزائر الثّقافي**، المجلّد الأوّل (1500 – 1830)، نشر دار الغرب الإسلامي (طبعة خاصة لوزارة المجاهدين)، الطّبعة الثّانية، 2005، ص 310.

[13] نفسه، المجلّد الأوّل، ص 296.

* كانت وفاة هذا الوليّ في الأوّل من شهر شوال عام (681) حسب رواية يحيى بن خلدون صاحب كتاب بغية الرّواد، أي قبل نحو أربعة أشهر فقط من وفاة مؤسس الدّولة الزّيانية "يغمراسن بن زيان"؛ أمّا هذه الغرفة فقد كانت تسمى حسبه دائما باسم "دار الرّاحة"، ينظر: *BARGES (J.J.L), Op.cit, p431.*

[14] *BROSSELARD (C), "Les inscriptions arabes de Tlemcen", Op.cit, p 90.*

[15] *BARGES (J.J.L), Op.cit, pp 430 - 431.*

[16] *Ibid, p 431.*

[17] أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، المجلد الأول، ص 310.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأثرية العربية مرّة ثانية؛ إلاّ أنّ تنقيب "بروسلار" الذي أمتدّ في عمق الأرض إلى بضعّة أمتار كاملة، لم يفض إلى أيّة نتيجة أثرية تُذكر[18].

ممّا يعني في المقابل، أنّ هذه الغرفة قد ظلّت على حالها الأوّل، مكتبة منذ تاريخ نشأتها إلى غاية تاريخ هدمها على يد الفرنسيين، مُلْحقة بالجامع الكبير من جهة القبلة، حيث موضع الفناء الذي أضافه الفرنسيون لاحقا، والماثل إلى غاية اليوم من جهة القبلة (اللّوحة: 03)، كما يؤكّد ذلك زوال أثرها بالكامل من غير أن يخلّف بصماته على جدار القبلة، وسقف الجامع، وكذا مخطط توزيعه، سواء من الدّاخل، أو من الخارج اليوم (الشّكل: 01).

وأنّ شهادة الأسير الألماني صادقة ودقيقة إلى حدّ بعيد، على الرّغم من ذكره لها في سياق عرضي لا يخصّها بذاتها، باعتبار أنّ المكتبة في وقته كانت فعلا مفتوحة على فضاء وسط المدينة مباشرة من غير أن يحول بينهما حائل*، وذلك قبل أن يضيف الفرنسيون الجدار الذي يطوّق الجامع اليوم عن السّاحة المركزية بالمدينة (اللّوحة: 03).

وأنّ رصيدها ما فتئ يزداد يوما بعد يوم بمقتنيات جديدة، حتّى بلغ شأنا معتبرا على حدّ ما ورد في شهادة الأسير الألماني، وأكّدته رسالة "أدريان بير بروغار" إلى صديقه وأستاذه "شامبليون فيجياك" عام (1836)، مُخبرًا إيّاه بما جمعه من مخطوطات نفيسة من مدينة تلمسان دون أن يحدد مصادر استقائها هناك، حيث لا يُستبعد أن تكون بعض كتب تلك الغنيمة قد كانت محفوظة في المكتبة المذكورة، بعد تسرّبها بكيفية ما إلى بعض سكان المدينة في خضم الاضطرابات العارمة التّي شهدتها المدينة قبيل وأثناء المرحلة الأولى من الاحتلال الفرنسي لها؛ قبل أن يتابع سرد تفاصيل نقلها برّا من تلمسان إلى وهران، حيث شحنها من وهران إلى مدينة الجزائر في سفينة بخارية، وقد كان مضمون ذلك الكنز المعرفي، منطويا على أكثر من مائتيْ مخطوط في مختلف فنون المعرفة الإنسانية[19].

---

[18] *BROSSELARD (C), "Mémoire épigraphique", Op.cit, p 55.*

* الرّاجح هو افترض بابا ثانية لهذه المكتبة من الخارج قبالة ضريح ابن مرزوق إلى جانب الباب المذكور من الدّاخل، كما يمكن أن يستنبط من العبارة التّي ذكرها "بارجاس" خلال نزهته بالجامع الكبير، والتّي بدأها بالضريح المذكور، ثمّ المكتبة، فبيت الصّلاة، حيث قال ما ترجمته بعد وقوفه على الضريح والمكتبة: "من المكتبة عدنا أدراجنا إلى بيت الصّلاة الذي نتوجه قبّة مخرّمة جميلة". ينظر *BARGES (J.J.L), Op.cit, p 433*؛ أضف إلى ذلك أنّ مقابر الموتي، وأضرحتهم الخاصّة غير مسموح بها في بيوت صلاة المساجد على المذهب المالكي، مذهب أهل المغرب آنذاك، الذي يفرض إخراجها، أو عزلها، عزلا تاما عن بيت الصّلاة.

[19] أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، المجلّد الأوّل، ص 309.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2- مكتبة ابنه السّلطان أبي زيان محمد:

تولّى السّلطان أبي زيان محمد بن أبي حمّو موسى الثّاني زمام الأمر مستهلّ شهر ربيع الثّاني من عام (796هـ / 1394م)، وقد دام حكمه مدّة قصيرة نسبيا، إذ لم تتجاوز خمس سنوات، وتحديدا إلى غاية عام (801هـ / 1399م)، ولعلّ من أبرز مناقب هذا العاهل، هو شغفه بالعلم طلبًا، ونَسْخًا، وتأليفا* على الصّعيد الشّخصي، وتنظيما، ووقْفا، وتشجيعا بوصفه شخصا مسؤولا في أعلى هرم نظام حكم مملكته الفتيّة، حيث قال التّنسي، مؤرّخ هذا العاهل بهذا الصّدد ما نصّه بالحرف الواحد: "فأقام سوق المعارف على سَاقِها، وأبدع في نظم مجالسها، واتساقها، وأوضح لأهل الأبصار، والبصائر رَسْمها، وأثبت في رسوم التّخليد وسمها ... وتصرّف في شبيبته بين دراسة معارف، وإفاضة عوارف، وكَلَف بالعلم حتّى صار منهج لسانه، وروضة أجفانه؛ فلم تخل حضرته من مناظرة، ولا عمرت إلاّ بمذاكرة، ومحاضرة؛ فلاحت للعلم في أيامه شموس، وارتاحت للاستغراق فيه نفوس، ونفوس"[20].

قبل أنّ يشرع في تفصيل نشاطات هذا السّلطان في مجال نَسْخ الكتب بخط يده، ثمّ وقْفِها على المكتبة التّي استحدثها بالجامع الكبير**، حيث قال: "نسخ رضي الله عنه بيده الكريمة، نُسَخا من القرآن الكريم***، وحَبَسها؛ ونُسْخة من صحيح البخاري؛ ونُسَخا من [كتاب] الشّفاء لأبي الفضل عياض[21]، حبسها كلّها بخزانته التّي بمقدم الجامع الأعظم بتلمسان المحروسة*، التّي من مآثره الشّريفة، المخلّدة لذكره الجميل، ما سرت به الرّكبان، بما أوقف عليها من الأوقاف المُوجبة للوصف بجميل الأوصاف"[22].

---

* انفرد التّنسي بذكر له كتابا من تأليفه الخاص، عنوانه: "كتاب الإشارة في حكم العقل بين النّفس المطمئنّة والنّفس الأمّارة"، هو في عداد المفقود اليوم. ينظر: التّنسي (محمد بن عبد الله)، **تاريخ بني زيّان ملوك تلمسان (مقتطف من نظم الدّرّ والعقيان في بيان شرف بني زيّان)**، حققه، وعلّق عليه: محمود بوعياد، المؤسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 211.

[20] التّنسي، مصدر سابق، ص ص 210 - 211.

** شكّك محقق كتاب التّنسي في وجود هذه المكتبة بالجامع الكبير، وأعتبر قصد التّنسي في هذا المقام، هو الأثاث العادي، المخصص لترتيب الكتب، ينظر: التّنسي، مصدر سابق، ص 211، هامش 536.

*** يحتفظ قسم المخطوطات بالخزانة العامة للكتب في مدينة الرّباط بنسخة من القرآن الكريم، تتضمن النّصف الأوّل منه دون النّصف الآخر، مدوّنة بخط مغربي جميل على رقّ غزال، مُحلّى بالذهب عند مستوى بداية كلّ صورة، وعند رأس كلّ آية، وكذا كتابة به جميع أسماء الله الحسنى الواردة في ذلك السّفر، الذي هو من تأليف هذا السّلطان أبي زيان بحاضرة تلمسان، عام (801)هـ، أي قبيل وفاة هذا العاهل بزمن قصير جدا؛ والمصحف مسجل تحت رقم القيد 1330 في فهرسة المكتبة المذكورة. ينظر التّنسي، مصدر سابق، ص 211، هامش 534؛ وكذلك: *LEVI-PROVENçAL (E), «Note sur un coran royal du 14eme siècle», In: **Hespéris**, 1921, 01er trimestre, pp 83 – 86.*

[21] هو: أبو الفضل عياض قاضي مدينة سبتة المغربية، المتوفى عام (544هـ / 1149م) بعاصمة الموحدين، مدينة مرّاكش بجنوب المغرب الأقصى عن عمر ناهز (75) عاما، وليس في منفاه بتَادُلاَ كما قال ابن خلدون، أكثر تفاصيل ينظر على سبيل المثال: أمبريوس هويثي ميرندا، **التّاريخ السّياسي للإمبراطورية الموحدية**، تعريب عبد الواحد أكمير، مطبعة النّجاح الجديدة، الدّار البيضاء، الطّبعة الأولى، 2004، ص 121، 141.

* يشير المؤلّف في هذا المقام إلى موضع المكتبة من المدخل الواقع في الجهة الشّمالية الغربية من الجامع يسار المئذنة (الشّكل: 01) بوصفه المدخل الوحيد (مكان السّهم الأحمر في الجدار الشّمالي من المعلم ككل) الذي يفضي إلى صحن الجامع بشكل مباشر.

[22] التّنسي، مصدر سابق، ص 211.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأمام غياب الشّواهد الأثرية حول هذه المكتبة، فإنّ علماء الآثار، الذين تطرّقوا إلى مكتبة والده بشكل مقتضب كما سبق الذكر، فإنّهم مرّوا على هذه المكتبة مرور الكرام، مكتفين في ذلك بالإحالة على مصدر التّنسي، صاحب هذه المعلومة، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء التّحقق من صحّة هذه المعلومة التّي انفرد بها التّنسي فيما يبدو، أو البحث عن موضعها من المسجد بشكل دقيق، مثل ما حدث مع مكتبة أبي حمّو[23].

ومهما كان من أمر، فإنّ الشّيء المؤكّد من خلال معاينة الجامع الكبير عن قُرْب، وكذا فحص مخطط توزيعه بعناية (الشّكل: 01)، هو بقاء أثر هذه المكتبة إلى غاية استقرار المحتلّ الفرنسي بالمدينة، حيث أجرى عليها تعديلا معماريا عميقا، أفقدها هويتها الوظيفية بالكامل على الرّغم من بقاء بصمتها الواضحة على مخطط المعلم (الشّكل: 01).

إنّها مكتبة مستطيلة الشكل بأبعاد معتبرة، تقع في أقصى الزّاوية الشّمالية الشّرقية من مؤخّرة الجامع (اللّوحة: 04)، المضافة أيام الزّيانيّين، مثلها في ذلك مثل المئذنة التّي تتوسطها بشموخ على محور عمودي مع حنية المحراب ببيت الصّلاة، حيث طول هذه المكتبة يمتدّ على مسافة عرض البلاطتين الطّرفيتين من المجنبة الشّرقية للجامع، التّي تحدّه من جهة القبلة، وعرضها بعرض الأسكوبان المشكلان لمؤخّرة الجامع، إذ ينفتح مدخلها الصّغير على مستوى الأسكوب الأول بالنّسبة للدّاخل من خارج الجامع، وليس الدّاخل من باحة الصّحن (الشّكل: 01).

وهي بتلك الأبعاد، توحي جليا مدى عظم تلك المكتبة خلال عصرها الذهبي، وبصرف النّظر عن رصيدها المحترم من الكتب، فقد بقيت على ما يبدو بذات التّخطيط الأوّلي إلى غاية قرار الفرنسيين باستحداث محكمة شرعية، خاصّة بالأحوال الشّخصية للأهالي خلال القرن التّاسعة عشر (19) ميلادي، حيث بنوها ملاصقة للجامع من النّاحية الشّمالية، وفي خضم ذلك البناء، تمّ هدم الجدار الشّرقي، ونظيره الشّمالي من المكتبة في سبيل فتحها على المحكمة بدل الجامع، حيث حُوِّلت بموجب ذلك من مكتبةٍ إلى مركزٍ لحفظ وثائق المحكمة منذ ذلك الحين إلى غاية السّنوات الأخيرة من مستهل هذا القرن (21)، حيث طال الجامع والمحكمة أشغال صيانة وترميم، استدعت نقل مجموعات الأرشيف المحفوظ بها إلى جهة أخرى، وعطّل بموجب ذلك نشاطها الوظيفي بشكل تام إلى يومنا هذا.

وصفوة القول، يمكن التذكير بالأهمية التّاريخية، والحضارية التّي يتمتّع بها هذان الصّرحان الثّقافيان في التّاريخ الثّقافي للدّولة الزّيانية بشكل خاص باعتبارهما الشّاهدان الأثريان الوحيدان من نوعهما لسلاطين الدّولة الزّيانية، المتعاقبين على حكم بلاد المغرب الأوسط (الجزائر) إبّان الفترة الممتدّة ما بين

[23] ينظر المراجع الآتية: *MARçAIS (W & G), Op.cit, p 143; BARGES (J.J.L), Op.cit, pp 432 - 433; GOLVIN (L), Op.cit, p 180.*

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(1236 – 1554)م، وتاريخ الجزائر الثّقافي بشكل عام بوصفهما شاهدان أثريان على المستوى المرموق الذي بلغه الوعي الثّقافي لدى شرائح المجتمع على أرض الجزائر خلال مرحلة القرون الوسطى، المفعمة بالاضطراب والأزمات؛ وهو ما يستوجب ضرورة العناية بهما أكثر، وترقيتهما إلى مستوى أفضل عما هما عليه اليوم، ضمن انشغالات السّياسة الوطنية في مجال صيانة التّراث الثّقافي وتثمينه.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية تأكّيد عناية أمراء الدّولة الزّيانية بالعلم، والمنشآت الثّقافية حتّى في الأيام العسيرة التّي مرّت بها دولتهم بين الفينة، والفينة الأخرى، كما يؤكّد ذلك بوضوح الظّروف التّاريخية التّي أُنشئت فيهما هاتين المكتبتين، حيث كان إنشاء الأولى منهما في أجل لا يتعدّى سبعة أشهر من تاريخ إجلاء الاحتلال المريني على مدينة تلمسان، فيما كانت الثّانية في فترة وجيزة بعد سابقتها، أي بعبارة أوضح قبل تخلّص الزّيانيين من آثار الاحتلال المريني المنهك لمدينتهم؛ شأنهما في ذلك شأن استحداث مدرسة أولاد الإمام، والمدرسة التّاشفينية، اللّتان جاء بناءهما في عقب رفع الحصار المريني المميت، المضروب على تلمسان طيلة أكثر من ثمانِ سنوات كاملة.

اللّوحة (01): وَقْف مسجد سيدي السّنوسي بقيسارية مدينة تلمسان،
حيث يتضمن قائمة من الكتب الدّينية الموقوفة، تصوير الدّارس.

اللّوحة (02): البناية التّي استوعبت مقتنيات متحف تلمسان، ورصيد المكتبة الفرنسية
من قبل، وحاليا مقتنيات متحف الفنون والتّاريخ
بوسط المدينة، تصوير الدّارس.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

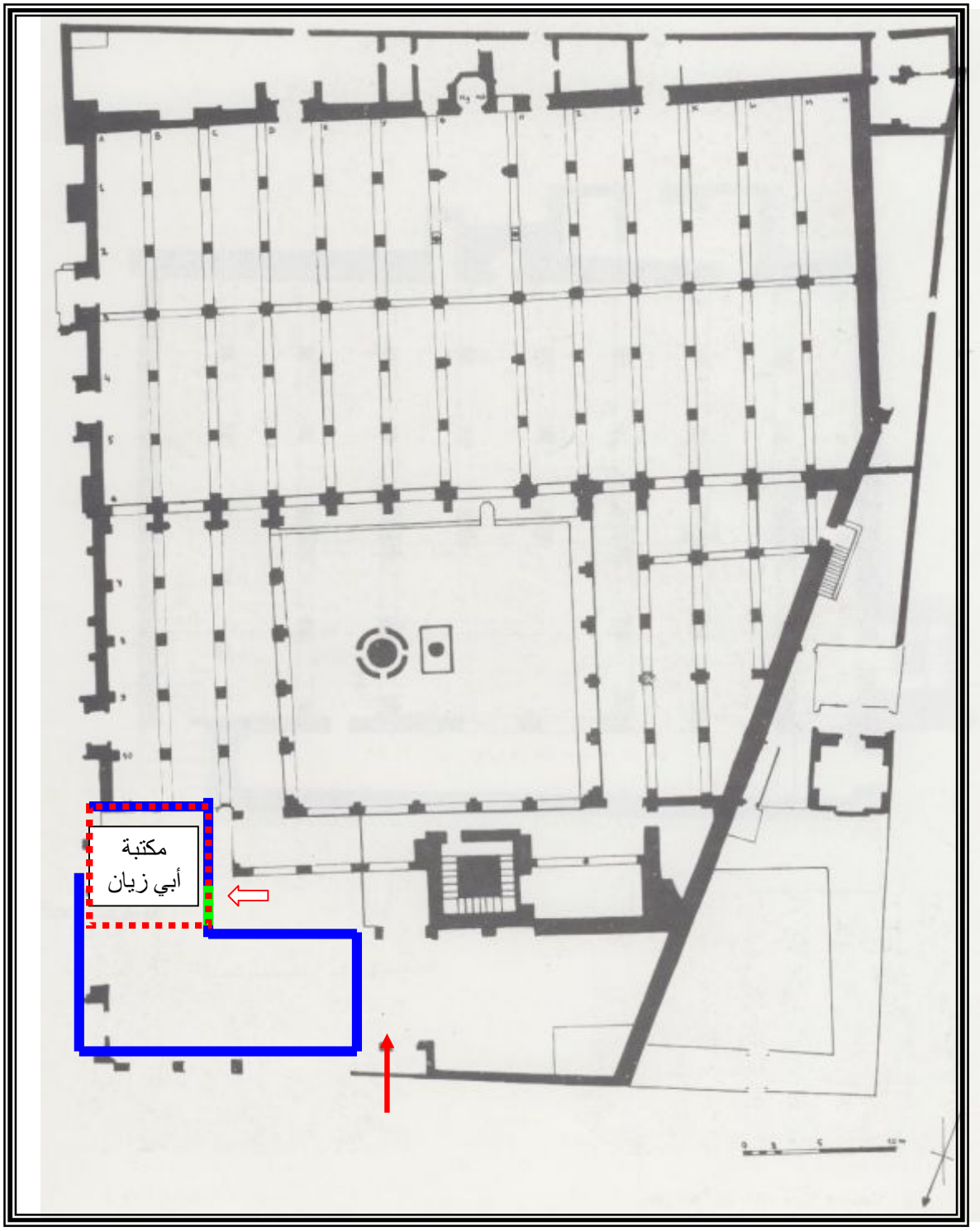

الشّكل (01): مخطط الجامع الكبير بمدينة تلمسان، نقلا عن الباحث: "بورويبة رشيد"، مع تحديد مخطط المحكمة المضافة إليه بالأزرق؛ وموضع المكتبة بالأحمر المتقطع، والمدخل المفضي إليها في مؤخّرة الجامع بالأخضر يسبقه سهم من تصوّر الدّارس.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

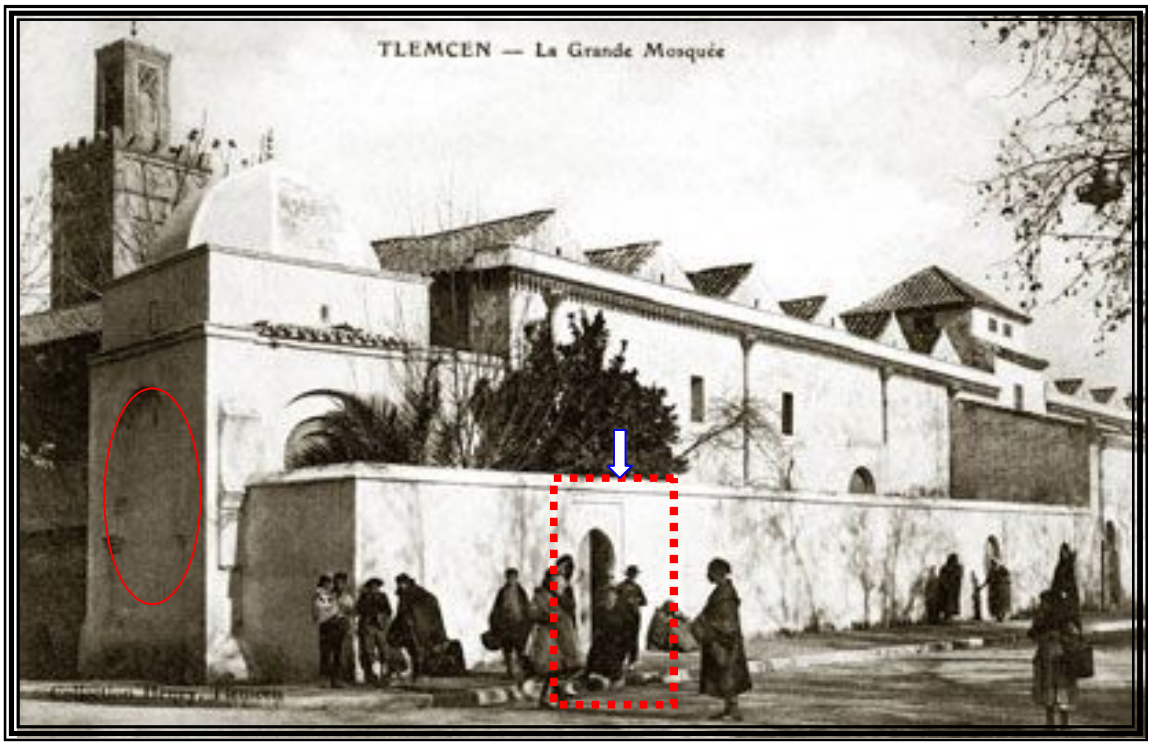

اللّوحة (03): بطاقة بريدية توضّح منظر الجامع الكبير من الزّاوية الجنوبية الغربية، حيث يبدو في الرّكن ضريح ابن مرزوق المجاور للمسجد وآثار التّعديل المدخل عليه في سبيل وضع الجدار الذي يطوّق الجامع من جهة القبلة، والموضع الافتراضي لمكتبة أبي حمّو موسى الثّاني بعد الشّجرة مباشرة على حدّ موضع كتابة تأسيسها بالدّاخل.

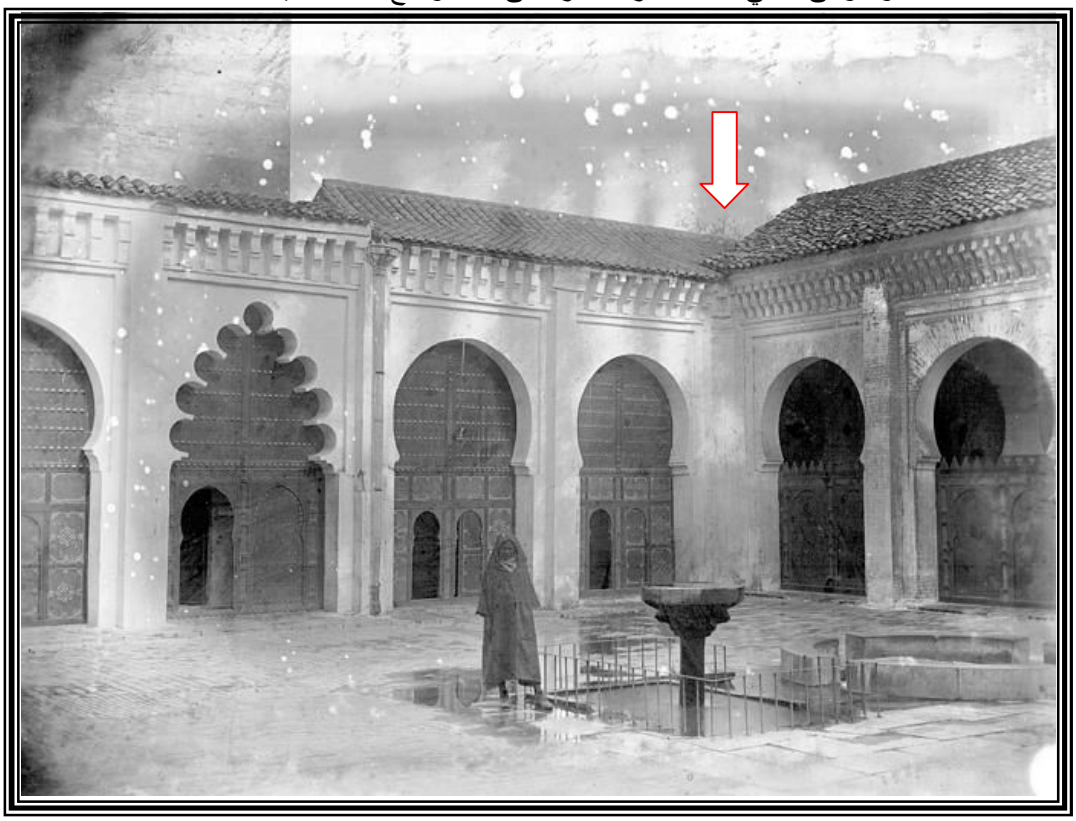

اللّوحة (04): الزّاوية الشّمالية الشرقية من مؤخّرة الجامع، حيث موضع المكتبة، الصّورة مأخوذة عن الأرشيف الرّقمي للمكتبة الوطنية الفرنسية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com